الحجاج بالسرد
من خلال باب "الأسد والثور" في كتاب "كليلة ودمنة"

د٠ عبد اللطيف بن محمد إبراهيم الجفن (*)

المقدّمة:

ما انفكّت مظاهر الحجاج وطرائقه في الكلام تتغيّر وتتنوّع. وما فتئت النظريّات في التفكير البلاغيّ تتزايد وتختلف. ويزداد الأمر اختلافا عند النظر في الحوار الخِطابيّ بين الحجاج والسرد، خاصّة السرد التخييليّ. وقد انقسم البلاغيّون فريقيْن متباينيْن: دمج الفريق الأوّل بين الحجاج والسرد، وأخذ بمقولة الحجاج في السرد، واستند في منطلقاته النظريّة إلى الحجاج اللغويّ، حيث الحجاج مسجّل في بنى اللغة، والوظيفة الحجاجيّة مقدّمة الوظيفة الإبلاغيّة(١)، ووظّف كذلك مكتسبات الحجاج الخطابيّ، حيث الحجاج ملازم لسجلّات الخطاب، فيرد ظاهرا، ويمثّل مقصدا، أو يرد مضمرا ويمثّل بعدا حجاجيّا، وهذا فضلا عن المنطلقات التداوليّة، حيث تتميّز الكلمة بخصائص اقتضائيّة وتقويميّة وتداوليّة(٢).

وفصل الفريق الثاني بين الحجاج والسرد فصلا بيّنا، وأخذ بمقولة الحجاج بالسرد، فقد جعل أرسطو السرد الوارد في قالب مثال، سواء كان تاريخيّا أو

(*) أستاذ مشارك، البلاغة والنقد، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السعوديّة.

الإيميل: ajfn@qu.edu.sa

(١) أبو بكر العزاوي، "اللغة والحجاج"، (ط ١، العمدة في الطبع، ٢٠٠٦)، ص: ١٤.

(٢) عبد الله صولة، "الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة"، (جامعة منوبة، ٢٠٠١)، ١: ٨٦.

خرافيّا، وسيلة الاستدلال الثانية بعد القياس الخطابيّ، يُؤتى به لتدعيم الحجاج وإقناع السامع بما يروم الخطيب إقناعه به[١]. وضبط حازم القرطاجنّيّ العلاقة بين الحجاج والسرد بناء على قانون العمدة والتابع، فالسرد دائما تابع للقول المقنع[٢]. وطوّر البلاغيّون المحدثون العلاقة بين الحجاج والسرد، فذهب ليونيل بلنجر إلى إدراج الخطاب السرديّ في الحجج الشارحة[٣]. وعدّ بول فاندن هوفن السرد حجّة تداوليّة، ورأى محمّد مشبال أنّ السرد تمثيل[٤].

وعند التسليم بأنّ السرد تابع للحجاج، وأنّه يرد حجّة سرديّة خادمة لأغراض حجاجيّة ومقاصد تداوليّة، تُثار مسألة ذات وجهين: يدور وجهها الأوّل حول التباين بين السرد الوارد في خطاب الشخصيّات، والسرد الوارد في خطاب الراوي، فهل يرد السرد في هيئة واحدة في كلا الخطابيْن أم يتباين بتباين المستويات السرديّة والمقامات البلاغيّة؟ وهل ينهض بالوظائف نفسها أم يختصّ كلّ خطاب ببعض الوظائف؟ ويدور الوجه الثاني حول الحمولة الحجاجيّة في السرد، فمن أين يستمدّ السرد تلك الحمولة؟ وكيف يكون حجاجيّا؟ وكيف يكون تأثيره في المتلقّي؟

---

(١) أرسطو، "فنّ الخطابة"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (ط ٢، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، آفاق عربيّة، ١٩٨٦)، ص: ١٥٥.

(٢) حازم القرطاجنّي، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، (الإصدار١، موسوعة الشعر العربيّ، ٢٠٠٩)، ص: ٥٥.

(٣) ليونيل بلنجر، "عدّة الأدوات الحجاجيّة"، ترجمة قوتال فضيلة، ضمن الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، نصوص مترجمة، (ط ١، إربد، عالم الكتب الحديث،٢٠١٠)، ٥: ١٢٦.

(٤) محمد مشبال، "البلاغة والسّرد: جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ"، (تطوان، منشورات كليّة الآداب، جامعة عبد المالك السّعدي، ٢٠١٠)، ص: ١٣.

وللإجابة عن تلك الأسئلة ودراسة طبيعة العلاقة بين الحجاج والسرد، سينطلق البحث من "باب الأسد والثور" في كتاب "كليلة ودمنة" لعبد الله بن المقفّع(١). ولهذا الاختيار ثلاثة أسباب أساسيّة: يتّصل أوّلها بباب الأسد والثور، فهو باب جامع بين الحجاج والسرد جمعا وظيفيّا يحدّد طبيعة العلاقة بينهما. ويتعلّق السبب الثاني بالشخصيّات، فهي آخذة بالسرد وسيلة في الحجاج مقدّمة إياه على غيره من الحجج. وأمّا السبب الثالث فيتّصل بالراوي، فقد أقام الباب على الحجاج بالسرد.

ولئن تعدّدت الدراسات السابقة التي درست كتاب كليلة ودمنة، فإنّ الباحث لم يجد أيّ دراسة تناولت العلاقة بين السرد والحجاج في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة. ولعلّ بيان طبيعة العلاقة بين السرد والحجاج وكيفيّة اشتغال السرد حجاجيّا يمثّلان الإضافة العلميّة الأساسيّة في هذا البحث. فما مظاهر الحجاج بالسرد في خطاب الشخصيّات؟

١- الحجاج بالسرد في خطاب الشخصيّات:

عالج جيرار جينيت مبحث المستويات السرديّة، داخل مقولة الصوت، إحدى أبرز مقولات الخطاب السرديّ إلى جانب مقولة الزمن ومقولة الصيغة. وتتّصل تلك المستويات بالسرود التي تتضمّن أكثر من حكاية. فـ"كلّ حدث ترويه حكاية هو على مستوى قصصيّ أعلى مباشرة من كم المستوى الذي يقع عليه الفعل السرديّ المنتج لهذه الحكاية"(٢). ورأى جونات أنّ الحكاية التي تتضمّن غيرها من الحكايات تكون في المستوى الأوّل، واصطلح عليها بالسرد

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، تحقيق عبد الوهاب عظّام وطه حسين، (ط ١، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤)، ص: ٧٣-١٠٥.

(٢) جيرار جنيت، "خطاب الحكاية بحث في المنهج"، ترجمة محمد معتص وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، (ط ٢، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧)، ص: ٢٤٠.

الابتدائيّ، ويعدّ راويها راوي المستوى الأوّل، ويكون من خارج الحكاية. وسمّى الراوي الذي يعهد إليه راوي المستوى الأوّل بفعل الرواية، راوي المستوى الثاني، ويُسمّى الراوي التالي راوي المستوى الثالث، وهكذا دواليك. وكلّ راو بدءا من راوي المستوى الثاني فما دونه هو راو داخل الحكاية.

وانطلاقا من هذه المنطلقات النظريّة في السرديّات البنيويّة يمكن اعتبار بيدبا الفيلسوف ودبشليم ملك الهند الشخصيّتيْن الرئيستيْن في باب الأسد والثور. ويُعدّ بيدبا راوي المستوى الثاني، فهو الذي روى لدبشليم حكاية الأسد والثور بمختلف تفاصيلها، وأمّا دبشليم فيُعدّ المروي له في هذا المستوى السرديّ. وأمّا الأسد والثور وكليلة ودمنة فهي من شخصيّات المستوى الثالث، وقد دأبت على استلام السرد من بيدبا، والاضطلاع بمهمّة الرواية في مواضع عدّة.

ويختلف الأمر اختلافا بيّنا من منظور بلاغة الحجاج، فلكلّ شخصيّة مشروع حجاجيّ تظهر ملامحه أثناء التفاعل القوليّ مع الشخصيّات الأخرى، وهي تسعى إلى تحقيقه، سواء بالتأثير أو الإقناع أو الحمل على الاقتناع. وقد اشتركت تلك الشخصيّات أو كادت في تقديم الحجاج بالسرد على غيره من وسائل الإقناع. ولمّا كانت الشخصيّات في المستوييْن السرديّيْن الثاني والثالث مختلفة ومتباينة، فلا شكّ في أنّ الحجاج بالسرد سيتباين سواء في مستوى القوّة الحجاجيّة أم المفعول الحجاجيّ. فكيف سيبدو الحجاج بالسرد في خطاب الشخصيات الواردة في المستوى الثاني؟

١-١ الحجاج بالسرد في خطاب شخصيّات المستوى الثاني:

يتكوّن المستوى الثاني في باب الأسد والثور من شخصيّتيْ دبشليم وبيدبا. وقد انخرطتا في حوار حجاجيّ. وتتحدّد طبيعة الحوار بناء على أحوال الشخصيّتيْن الذهنيّة والنفسيّة والمظهريّة، وموقعهما المؤسّسيّ والاجتماعيّ،

وانتمائهما الثقافيّ، ومنزلتهما من العلم والمعرفة والفنون، ومختلف العناصر السياقيّة الكائنة زمن التلفّظ.

إنّ قراءة النص قراءة أولية تظهر لنا النزر القليل من المعطيات المتعلّقة بالشخصيّتيْن في أثناء التفاعل القوليّ بينهما. ومن بين تلك المعطيات الوضع المؤسّسيّ لكلّ شخصيّة، فدبشليم "ملك الهند"، وبيدبا "رأس الفلاسفة". ويؤسّس هذا الوضع المؤسّسيّ ضربا من التقابل في العلاقة بين الشخصيّتيْن. فدبشليم صاحب سلطة ونفوذ، وخبير بعلم السياسة، وطالب معرفة، بينما بيدبا صاحب فلسفة وعلم، وخبير بسياسة العلم، وطالب حظوة. ورغم التناظر بين كفاية علم السياسة وكفاية سياسة العلم فإنّ العلاقة بين الشخصيّتيْن تظلّ عموديّة، يقع بمقتضاها بيدبا في الموقع الأعلى، ويقع دبشليم في الموقع الأدنى.

وعند تأمل النص؛ يمكن تقدير المعطيات المسكوت عنها والعناصر السياقيّة المحجوبة عن طريق الجهد الاستدلاليّ، فالمقام مقام علم ومعرفة، والمكان لا شكّ في أنّه مجلس دبشليم، وهو يثير بجميع مكوّناته من وزراء وجلساء وأعوان وديكور الرهبة في النفوس. وإذا مثّلت تلك العناصر السياقيّة عوامل مساعدة لدبشليم ليكون متوازنا نفسيّا ومهيّأ للتفاعل القوليّ، فلعلّها تمثّل عناصر عرقلة، بالنسبة إلى بيدبا، نظرا إلى ما يمكن أن تولّده من ضغوطات عليه من شأنها أن تجعل بيدبا متوتّرا، ومجبرا على اعتماد سياسة في الكلام تستجيب لمختلف تلك العناصر السياقيّة، وتحقّق في الوقت نفسه، غاية الحوار القُصوى، وهي مزيد التمكين للأطروحة في ذهن دبشليم. فكلّ تلك المعطيات والعناصر السياقيّة المستنبطة استنباطا، تؤكّد طبيعة العلاقة العموديّة القائمة بين دبشليم وبيدبا.

وانعكست تلك العلاقة العموديّة بين الشخصيّتيْن على بنية الحوار الحجاجيّ وصيغه، فقد حظي دبشليم بالبداية، فضبط موضوع الحوار، وهو الكلام في

العداوة بعد المحبّة بسبب الكذوب الخؤون، واختار أداة الاستدلال، وهي المثال. واعتمد في الصياغة على جملة طلبيّة رأسها فعل الأمر "اضرب". ولا يكون الأمر أمرا إلّا متى كان الآمر أعلى منزلة من المأمور.

وجد بيدبا نفسه مقيّدا بمجموعة من الضوابط التي حدّدها دبشليم. فاضطر إلى تكييف خطابه حسب تلك الضوابط، وتأسيس مشروعه الحجاجيّ بناء عليها. ويمكن توضيح مكوّنات مشروع بيدبا الحجاجيّ من خلال الشكل الآتي:

المحاجّ: دبشليم المحجوج: بيدبا

الأطروحة: العداوة بعد الصداقة بسبب الكذوب وسيلة الإقناع: السرد

وردت مكوّنات المشروع الحجاجيّ عند بيدبا حسب رغبة دبشليم. وهو يبدو في هذا المشروع الحجاجيّ متعاونا، فالقضيّة التي أثارها ليست موضع شكّ أو إنكار بالنسبة إليه، وليست مسألة خلافيّة مع بيدبا، وإنّما هو يطلب مزيدا من الاقتناع بقضيّة يبدو أنّه مقتنع بها قبليّا. وقد قدّر أنّ السرد قد يفي بحاجته، ويحمله على الاقتناع والتسليم، واختار من أنواع السرد المثال.

استجاب بيدبا لرغبة دبشليم، فضرب له مثلا خرافيّا، تضمّن ثلاث شخصيّات رئيسة: الأسد وشتربة ودمنة. وقد جمعت بين الأسد وشتربة علاقة صفاء وودّ ومحبّة، ظهرت في خطاب الأسد لشتربة: "الزمني، فإنّي مُكرِمك ومحسِنٌ إليك"(١)، وتجلّت في خطاب شتربة لدمنة: "ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذُنب إليه، ولا إلى أحدٍ من جُنده ولم أذُنب إليه، وأظنُّه قد حُمِل عليَّ، وشُبِّه عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوءٍ، جرَّب وعرف منهم أشياء هي تُصدَّق عنده ما بلغه عن غيرهم"(٢).

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة، ص: ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٩٢.

وأمّا دمنة فإنّه جمع بين الأسد وشتربة، في مرحلة أولى، وعقد الصلة بينهما. ثم قرّر، في مرحلة ثانية، الإيقاع بهما في مهوى العداوة. فخلا بالأسد وأوغر صدره على شتربة، وأعلمه أنّ شتربة تنازعه نفسه الملكَ، قائلا: "فهو اليومَ يظنُّ أنه مثلك، وأنك إن زُلتَ عن مكانك صار له مُلكك، فهو لا يَدَعُ جُهدًا"(١). ولم يزل دمنة في هذا الكلام وشبهه إلى أن حمل الأسد على الاقتناع بأنّ شتربة عدوّ متربّص، يروم الغدر به.

ثم عمد دمنة إلى شتربة، فأوقع في ذهنه أنّ الأسد آكله ومطعم أصحابه منه، وعليه التماس الحيلة للخلاص من الورطة والنجاة بنفسه. ورغم إنكار شتربة لخطاب دمنة في بداية الأمر، فإنّه سرعان ما سلّم بمقالته، وأيقن بالشرّ، وخشي الهلاك. ثم جعل علامات الأسد التي وصفها دمنة، عند الدخول إليه، دليلا على نيّات الأسد في القضاء عليه، قائلا: "لئن أنا عاينتُ منه ما وصفت، فما في أمره عندي شكّ"(٢). وقد كُلّلت مساعي دمنة بالنجاح، وتحوّلت القناعة عملا، فقد اقتتل الأسد وشتربة "قتالا شديدا سالت منه الدماء"(٣)، وانتهى القتال بالقضاء على شتربة.

ويظهر من خلال المثال أنّ الأسد وشتربة لم تبد من كليهما أيّ عداوة تجاه الآخر، ولم يعجل أحدهما على الآخر بسوء العشرة أو جفاء القول، وإنّما وقعا فيما وقعا فيه من العداوة والقتال بسبب مكر دمنة وخبثه. فقد كذب على الأسد في خصوص شتربة، وكذب على شتربة في خصوص الأسد، فتحوّلت العلاقة بينهما من المودّة والمحبّة إلى التدابر والعداوة. ولم يُقدم دمنة على ما أقدم عليه جهلا وغباء، وإنّما زورا وبهتانا، حماية لسالف مكانته من الأسد. فقد قرّب بين

(١) المصدر نفسه، ص: ٨٨.

(٢) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة، ص: ٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٩٩.

الأسد والثور، ولمّا رأى أنّ الأسد قد اطّرحه، واستأثر بشتربة، ونزّله المحلّ الأرفع، امتلأ صدره حسدا، وتميّز من الغيظ، وغلب عليه طبعه الأصيل، فخان ثقة الأسد، وكذبه القول، وغدر بشتربة واحتال عليه.

ورد هذا المثل الذي ضربه بيدبا حكاية سرديّة. وللسرد مظاهر مختلفة من القوّة الحجاجيّة والقيمة الاستدلاليّة، تختلف باختلاف القالب الفنّيّ الذي يرد فيه. وقد جاء كلام بيدبا في قالب مثال. والمثال عند أرسطو هو وسيلة الاستدلال الثانية بعد القياس الخطابيّ. ويفيد نقل الحكم من الجزئيّ إلى الجزئيّ، أي من حالة خاصّة إلى حالة خاصّة، وقد عرّفه بأنّه "النقلة من جزئيّ إلى جزئيّ يشبّه به. وسواء كان المصيّر من جزئيّ واحد إلى جزئيّ واحد أم من جزئيّات كثيرة إلى جزئيّ واحد، إذ كانت نقلة ذلك الحكم إلى جزئيّ هو من باب واحد"(١). وهو يختلف عن القياس والاستقراء، لكون القياس هو نقل الحكم من الكلّيّ إلى الجزئيّ، أو من حالة عامّة إلى حالة خاصّة. والاستقراء هو نقل الحكم من الجزئيّ إلى الكلّيّ أو من حالة خاصّة إلى حالة عامّة. وقد اصطلح عليه أرسطو بالاستقراء الخَطابيّ.

وللمثال نوعان، حسب أرسطو: أوّلهما مثال تاريخيّ، ويقوم على وقائع تاريخيّة وأحداث واقعيّة. وثانيهما مثال مخترع، وهو مثال خرافيّ يقوم على أحداث ووقائع تخييليّة، لا وجود لها في الواقع المرجعيّ(٢). وكان أرسطو قد ضبط طرائق إجراء المثال، ومن بينها أنّ الخطيب يقتصر على مثال واحد في

(١) ابن رشد، "نصّ تلخيص منطق أرسطو، المجلّد السادس والسابع، كتاب طوبيقي وسوفسطيقي أو كتاب الجدل والمغالطة"، دراسة وتحقيق جيرار جهامي، (ط ١، بيروت، دار الفكر اللبنانيّ، ١٩٩٢)، ص: ٥١٤.

(٢) أرسطو، "فنّ الخطابة"، ص: ١٥٦.

نهاية خطابه إذا كانت لديه أقيسة خطابيّة ذكرها في بداية الخطاب[١]. وأمّا حازم القرطاجنّيّ فقد اصطلح في البلاغة العربيّة القديمة على المثال بالتمثيل الخطابيّ، وحذا حذو أرسطو في المفهوم، فعرّف المثال بأنّه "الحكم على جزئيّ بحكم موجود في جزئيّ آخر يماثله"[٢]. ورأى أنّ المثال يظلّ تابعا للقول المقنع رغم وروده أحيانا مخيّلا.

واصطلح توماس أوكونور سلوان، في إطار البلاغة الجديدة، على المثال بالأمثولة، وعرّفها قائلا: "هي صورة بلاغيّة تبنى بواسطة عمليّة إحلال دلاليّ، ويمكن فهمها على أنّها تغاير لفظيّ أو تغاير نصّيّ"[٣]. وإذا كانت وظيفة الشاهد تأسيس القاعدة فإنّ المثال يُوظّف لتقوية الإذعان لقاعدة معروفة ومسلّم بها، عن طريق تقديم حالات خاصّة توضّح القاعدة وتبرز قيمتها، وتقوّي حضورها في ذهن السامع.

ويعدّ المثال الذي ضربه بيدبا لدبشليم الحالة الخاصّة. وترتّب على طبيعة العلاقة بين الشخصيّات الثلاثة في المثال حكم جزئيّ، مفاده أنّ الكذوب الخائن يزرع العداوة بين المتحابّيْن، ويفرّق بينهما. ويُنقل ذلك الحكم الجزئيّ إلى حالة أخرى خاصّة. فتنشأ بين الحالتيْن الخاصّتيْن مجموعة من التناسبات. وكان أرسطو قد ضبطها في قوله: "لا ينطوي المثال على علاقة الجزء بالكلّ ولا على علاقة الكلّ بالجزء ولا على علاقة الكلّ بالكلّ، بل ينطوي فقط على علاقة الجزء بالجزء والشبيه بالشبيه، إذا كان الحدّان يدخلان في جنس واحد، ولكن أحدهما أعرف من الآخر"[٤]. ويمكن بيان وجوه التناسب في الجدول الآتي:

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١٥٧.

(٢) حازم القرطاجنّي، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، ص: ٥٥.

(٣) توماس أوكونور سلوان، "موسوعة البلاغة"، ترجمة نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، (ط ١، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠١٦)، ١: ٨٥.

(٤) أرسطو، "الخطابة"، ص: ٢٠.

	الحالة الخاصّة الأولى	الحالة الخاصّة الثانية
الشخصيّات	الأسد	الصديق الأوّل
	شتربة	الصديق الثاني
	دمنة	الكذوب الخائن
الحُكم الجزئيّ	العداوة بعد المحبّة بين الأسد وشتربة بسبب دمنة.	العداوة بعد المحبّة بين الصديقيْن بسبب الكذوب الخائن.

تؤدّي التناسبات القائمة بين الحالتيْن الخاصّتيْن إلى نتيجة مفادها أنّ الحكم الجزئيّ في الحالة الخاصّة الأولى ينطبق تمام الانطباق على الحالة الخاصّة الثانية. فيوقع ذلك التطابق ضربا من الاقتناع والتصديق في ذهن السامع، قد يرتقي إلى مرتبة المسلّمات التي لا يداخلها شكّ.

ولا توجد في باب الأسد والثور قرينة نصّيّة تدلّ على أن دبشليم جرّب تلك الحالة الخاصّة الهدف، ماضيا أو راهنا، ويمكن أن تكون تلك الحالة الخاصّة الهدف تظلّ احتمالا ممكن الوقوع في تصوّر دبشليم. ويتأكّد هذا التخمين بما ورد في خطاب بيدبا في نهاية باب الأسد والثور، حيث عدّ تجربة دمنة مع الأسد وشتربة "من الأعاجيب والعِبَر لذوي الألباب في الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهْس، والنظر فيما يزوِّقون من خديعتهم ومكرهم وسِعايتهم"(١).

وبهذا يكون المثال الخرافيّ الوارد في خطاب بيدبا، استدلالا بالسرد على دور الخؤون الكذوب في الإيقاع بين المتحابّيْن. وقد اقتنع دبشليم بنجاعة الاستدلال، وسلّم بالأطروحة التي لم يكن ناكرا لها قبليّا. ومن القرائن الدالّة على ذلك ما ورد على لسان دبشليم في بداية باب الفحص عن أمر دمنة، حيث قال لبيدبا: "قد سمعتُ خبرَ الواشي المُحتال الماهر بالخِلابة كيف يُفسِد، بتشبيهه وتلبيسه، الودَّ الثابتَ بين المتحابَّيْنِ"(٢). فسماعه دون اعتراض، واستخباره عن

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٠٧.

أمر دمنة دليلان على تسليمه بصدقيّة الحكم الجزئيّ وقطعيّته. فيكون قد "انتقل من وضع أوّل في التفكير إلى وضع ثان تتغيّر فيه الاقتناعات والمعتقدات"(١).

وللحجاج بالسرد مظهر آخر من القوّة الحجاجيّة والقيمة الاستدلاليّة، في التفكير البلاغيّ، فقد ذهب حازم القرطاجنّي في البلاغة العربيّة القديمة إلى أنّ العلاقة بين الحجاج والسرد قائمة على قانون العمدة والتابع. فيكون الحجاج في الخطاب الحجاجيّ عمدة ويكون السرد تابعا، يقول القرطاجنّي: "ذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة"(٢).

ويُعدّ السرد، في إطار البلاغة الجديدة، تمثيلا سرديّا، يُتيح للمتكلّم تمثيل أفكاره الأساسيّة تمثيلا ملموسا وحيّا، وينهض بوظيفة الحجّة السرديّة. وتحدّث محمّد مشبال عن السرد في أخبار الجاحظ، فرأى أنّ تلك الأخبار "في بنيتها العامّة، حجج وشواهد قصصيّة، تعتمد حكايات وأحداثا وعلاقات محسوسة ومصيرا تؤول إليه الأمور، أي إنّها تعتمد الخطاب السرديّ لتوصيل رسالتها وإحداث أثرها في المتلقّي. إنّها حكايات سرديّة تقوم بتمثيل مضمون خلقيّ أو حكمة مشتركة أو معنى عقديّ أو فكرة فلسفيّة أو علميّة. فإذا كانت في بنيتها السطحيّة الظاهرة تسرد حكاية فإنّها من الواضح تخدم أغراضا بلاغيّة"(٣).

ومهما اختلفت مصطلحات بعض البلاغيّين الجدد فإنّ السرد يمكن أن يكون حجّة، سواء كانت داعمة أم داحضة. ولذلك يمكن عدّ السرد الوارد على لسان بيدبا حجّة سرديّة. ولن تستقيم حجاجيّة السرد إلّا متى حصل عدول عن المعنى

---

(١) عبد الله البهلول، "مصادر القوّة الإقناعيّة في المثال المخترع، مثال البوم والغربان أنموذجا"، ضمن مؤمنون بلا حدود، (٢٠١٦)، استرجعت بتاريخ ٢٠٢٣/٠٩/٠٣ من موقع: www.mominoun.com، ص-ص: ٣-٤.

(٢) جازم القرطاجنّي، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، ص: ٣٣٠.

(٣) محمّد مشبال، "البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ"، ص: ٤٩.

النصّيّ إلى المعنى الحجاجيّ، فالمعنى النصّيّ ناتج عن البنى الصوتيّة والمعجميّة والتركيبيّة في حكاية الأسد وشتربة ودمنة، ووثيق الصلة بالبرنامج السرديّ، وهو برنامج اتّصاليّ، حيث أفلح دمنة في تحقيق مراده، فقتل الأسدُ شتربةَ. وأمّا المعنى الحجاجيّ البلاغيّ فناتج عن تفاعل القول مع جميع العناصر السياقيّة، وهو وثيق الصلة بمشروع بيدبا الحجاجيّ، ومداره على الزيادة في درجة تسليم دبشليم بأنّ الكذوب الخؤون يقطع العلاقة بين المتحابّين، ويحوّلها عداوة.

وتقوم الأطروحة التي يروم بيدبا ترسيخها في ذهن دبشليم على مجموعة من المفاهيم المجرّدة، فالمحبّة والعداوة والكذب والخيانة، مفاهيم تُدرك عن طريق العقل. وهي تحيل إلى مضمون خُلقيّ، وهو بدوره مجرّد. وإذا كان ما هو مجرّد قابلا للإدراك والفهم، فإنّ ترسيخه في الذاكرة، ومفعوله في الذهن وتأثيره في الوجدان تظلّ محدودة. ولذلك يظلّ ما هو مجرّد في حاجّة إلى ما هو حسّيّ لترسيخه وتقوية مفعوله وتفعيل تأثيره.

ويمثّل السرد الوارد في خطاب بيدبا تمثيلا سرديّا تجريبيّا لذلك المضمون الخُلقيّ. فالأسد تمثيل للصديق الأوّل، وشتربة تمثيل للصديق الثاني، وعلاقة الصفاء والمودّة والمحبّة بينهما تمثيل لذلك النوع من العلاقات التي تجمع بين الصديقيْن. وأمّا دمنة فهو تمثيل للخؤون الكذوب. فهذه الشخصيّات القصصيّة هي تجسيم لتلك المفاهيم المجرّدة، وذلك المضمون الخُلقيّ. وبذلك يُمكّن السردُ المتلقيَ من رؤية المفاهيم والمضامين المجرّدة عيانا. وقد استدلّ بيدبا بالسرد عن تلك المفاهيم المجرّدة ومضمونها الخلقيّ، فجعل دبشليم يراها مرأى العين، فازداد اقتناعا بها. ولعلّ الحجاج بالسرد في خطاب شخصيّات المستوى الثالث تكشف مظاهر أخرى من القوّة الحجاجيّة والقيمة الاستدلاليّة في السرد؟

١-٢ الحجاج بالسرد في خطاب شخصيّات المستوى الثالث:

ينتمي كليلة ودمنة إلى المستوى السرديّ الثالث، وهما الشخصيّتان الرئيستان فيه. وكلّما تنازل بيدبا راوي المستوى الثاني عن السرد ظهر المستوى السرديّ الثالث، فتولى كليلة ودمنة السرد نيابة عنه. وحظى دمنة بالنصيب الأوفر منه، وظهر في مواضع مختلفة، يتفاعل قوليّا مع عدّة شخصيّات، وأمّا كليلة فاقتصر حضوره على السياقات التي تفاعل فيها قوليّا مع دمنة. فمن أين استمدّ الحجاج بالسرد الوارد في خطاب دمنة قوّته الإقناعيّة؟

تواصل دمنة في المستوى السرديّ الثالث مع ثلاث شخصيّات: كليلة والأسد وشتربة، فكانت له ثلاثة مشاريع حجاجيّة. ويمكن تفصيلها كما يأتي:

* المشروع الحجاجيّ الأوّل: ارتبط هذا المشروع بطبيعة العلاقة بين دمنة بكليلة، وقام على حرص دمنة على إقناع كليلة برغبته في الإيقاع بشتربة. ويمكن تفصيل عناصره على النحو الآتي.

المحاجّ: دمنة المحجوج: كليلة

الأطروحة: الإيقاع بشتربة وسيلة الإقناع: السرد

كان دمنة يُدرك أنّه مقدم على أمر جلل، وأنّه في حاجة إلى من يشدّ أزره ويكون له سندا. فآوى إلى ركن أخيه يلتمس القوّة والعون والمؤازرة. ولكنّ كليلة كان عاقلا حازما، يقدّر الأمور حقّ قدرها، فلم يكن على مقدار دمنة من الحماسة في الإيقاع بشتربة، نظرا إلى صغر دمنة وضخامة شتربة من جهة، وما قد يلحق الأسد من المضرّة في هلاك شتربة من جهة أخرى. فوجد دمنة نفسه ملزما باستدعاء الحجج ليُخرج كليلة من وضع ذهنيّ أوّل أساسه التردّد، إلى وضع ذهنيّ ثان أساسه الموافقة. فأورد حجّتيْن سرديّتيْن: مدار الأولى على حكاية الغراب والأسود، ومدار الثانية على حكاية الأرنب والأسد.

وتُعد حكاية الغراب والأسود تمثيلا سرديّا لفكرة مفادها إصابة الحاجة دون التعرّض للخطر والوقوع في المهالك. فقد قرّر الغراب التخلّص من الأسود لأنّه دأب على أكل فراخ الغراب. ولكنّ أحد أصدقائه حذّره من عواقب المواجهة المباشرة مع الأسود، وما قد يترتّب عليها من المكاره، وأرشده إلى حيلة لطيفة، توصله بغيته وتقيه مخاطر المواجهة. فاستجاب الغراب لنصيحة صديقه، وعدل عن المواجهة المباشرة خوفا من شرّ مستطار قد يلحقه، إلى الاستعانة بمن يقضي على الأسود. فاختطف حَلْيا وأصحابه ينظرون، ثم طار به وألقاه قرب جحر الأسود. فجاء أصحاب الحلي يلتمسونه، فـ"رأوا الأسوَد نائمًا على باب جُحره فقتلوه"(١).

حوّلت حكاية الغراب والأسود من حيث هي حجّة سرديّة الإستراتيجيّة التي سيعتمدها دمنة في الإيقاع بشتربة، من المستوى التجريديّ إلى المستوى التمثيليّ الحسّيّ، فأدركها ذهن كليلة على نحو أوضح. ولا شكّ في أنّ كليلة سيقتنع بأنّ دمنة لن يُعرّض نفسه للخطر، وأنّه سيصيب غايته بأيدي غيره. وإن لم يقتنع اقتناعا تامّا فهو على الأقلّ لن يعترض.

وتعدّ حكاية الأرنب والأسد تمثيلا سرديّا لفكرة مفادها أنّ قوّة العقل تهزم قوّة الجسم. فالأسد في الحكاية أقوى بدنيّا من الأرنب وسائر الوحوش، وقد استغلّ تلك القوّة في بسط نفوذه على جميع الوحوش. ثم صالحهم على أن يرسلوا إليه كلّ يوم دابّة لغدائه. وأصابت القرعة ذات يوم أرنبا، لتكون غداء للأسد. ولمّا وصلت إليه احتالت عليه. فأوهمته أنّها رسول الوحوش إليه لتسليمه غداءه، ولكنّ أسدا آخر افتك منها الغداء. ثم قادته إلى جُبٍّ صافي الماء، وزعمت أنّ الأسد المغير مقيم فيه، فلمّا نظر الأسد في الجبّ رأى صورته، فوثب في الجبِّ لقتال الأسد الآخر، فغرِق ومات.

---

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ٨٧.

تُقرّب حكاية الأرنب والأسد من جهة كونها حجّة سرديّة المضمونَ الفكريَّ من ذهن كليلة، ذلك أنّها تمثيل سرديّ لذلك المضمون الفكريّ. فيتبيّن كليلة الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فيقتنع بأنّ دمنة الصغير الحجم، منتصر لا محالة على شتربة الضخم الجثّة، عن طريق الحيلة. فيسلّم بفكرة دمنة، ويُذعن لما أراده. وقد ورد التسليم على لسان كليلة في قوله: "إن قدرتَ على هلاك شتربة في غير مشقّة تدخلُ على الأسد فافعل" (ابن المقفّع، ت ١٤٢هـ، ٢٠١٤م، ص ٨٨). وبذلك يكون دمنة قد أفلح في إقناع كليلة بفكرته في الإيقاع بشتربة، وإستراتيجيّته في ذلك، فآل مشروعه الحجاجيّ الأوّل إلى النجاح.

* المشروع الحجاجيّ الثاني: اتّصل هذا المشروع بطبيعة العلاقة بين دمنة والأسد، وقام على سعي دمنة إلى إغواء الأسد، وتحريضه على قتل شتربة. ويمكن بيان عناصره كما يلي.

المحاجّ: دمنة المحجوج: الأسد

الأطروحة: القضاء على شتربة وسيلة الإقناع: السرد

يعلم دمنة أنّه حديث عهد بمجالس الأسد، وأنّ منزلته لم تترسّخ بعد، وأنّ تغيير موقف الأسد من تبجيل شتربة إلى اطّراحه والنقمة عليه، دونه خرط القتاد. لذلك تهيّا للأمر على أكمل وجه، فالتمس السياق المناسب، واختار التوقيت الملائم، وعدّل إيتوسه حسب مقتضى الحال، فـ"ترك الدخول على الأسد أيامًا، ثم أتاه على خلوة متحازنا"[1]. ثم اتبع إستراتيجيّة في الكلام مُحكمة البناء، فبدأ كلامه في إحدى خطاباته بالأقيسة الخطابيّة ثم ختمه بحجّة سرديّة مدارها على حكاية السمكات الثلاث.

وجاءت حكاية السمكات الثلاث تمثيلا سرديّا لفكرة مجرّدة مفادها وجوب الاحتيال للأمر قبل تفاقمه، وعدم انتظار وقوعه. فالسمكة الحازمة، لمّا سمعت

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ٨٨.

تواعد الصيادِيْن على الرجوع إلى الغدير بشباكهما، عجّلت بالخروج من مدخل الماء إلى النهر، وتردّدت السمكة الكيّسة، إلى أن أدركها الصيَّادان، ولكنّها تماوتت فرمى بها الصيّادان، وقفزت إلى النهر فنجت. وأمّا العاجزة "فلم تَزَلْ في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صاداها"(١).

كان الأسد مُنْكِرًا لكلام دمنة، ومسلّما بصفاء سريرة شتربة، فقال: "ليس عليَّ منه مكروه، ولا إلى الغدر به سبيل بعد إيماني إياه وإكرامي له، وثنائي عليه على رءوس جندي"(٢)، ولكنّ درجة الإنكار تلك بدأت تتلاشى، فقد أتاحت حكايات السمكات الثلاث، من حيث هي حجّة سرديّة، لدمنة تمثيل أفكاره تمثيلا تجريبيّا حيّا، فتمكّن الأسد من استيعاب فكرة دمنة، ومقاصده الرامية إلى التعجيل بالفتك بشتربة. ورغم ذلك خشي دمنة ألّا يكون الأسد قد أدرك المضمون الفكريّ في حكاية السمكات الثلاث على الوجه الذي يريده، فصاغه صياغة تقريريّة قائلا: "وأنا أرى لكَ أيها الملك معاجلةَ الحزمِ والحيلة، فتحسمُ الداء قبل أن تُبتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله"(٣).

وبلغت الحجّة السرديّة من الأسد مبلغا عظيما، وظهر مفعولها الحجاجيّ نفسيّا وذهنيّا، ففي المستوى النفسيّ صار الأسد كارهًا لمجاورة شتربة، وفي المستوى الذهني اقتنع الأسد بمقالة دمنة قائلا: "سآخذ بمشورتك في ذلك، ولئن أنا رأيتُه على ما وصفتَ فليس في أمره عندي شكّ"(٤). وبذلك يكون دمنة قد أفلح بواسطة الحجاج بالسرد في إخراج الأسد من وضع ذهني أوّل أساسه خلوّ

(١) المصدر نفسه، ص: ٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ص: ٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٨٩.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٩١.

الذهن، وأدخله في وضع ذهنيّ ثان أساسه العداء لشتربة، والعزم على الفتك به. ويكون المشروع الحجاجيّ قد آتي أكله.

* المشروع الحجاجيّ الثالث: ارتبط هذا المشروع بالعلاقة بين دمنة وشتربة، وقام على سعي دمنة إلى تحفيز شتربة على ضرورة التحوّط من الأسد والاستعداد لمواجهته دفاعا عن النفس. ويمكن تفصيل مكوّنات المشروع الحجاجيّ الثالث كما يأتي:

المحاجّ: دمنة المحجوج: شتربة

الأطروحة: الحذر من الأسد وسيلة الإقناع: السرد

انطلق دمنة إلى شتربة لإنهاء الجزء الثالث من خطّته في التخلّص منه. وكان واعيا أنّ إغراءه بالحذر من الأسد لن يكون يسير المنال. فعجم كنانته البلاغيّة واختار من وسائل الإقناع أمضاها تأثيرا وأصلبها إقناعا. فكانت حكاية الطيطوي ووكيل البحر.

وتعدّ تلك الحكاية تمثيلا حكائيّا لفكرة مجرّدة مفادها عدم استصغار العدوّ والتهاون به. فقد استصغر وكيل البحر أمر الطيطوى، وذهب بفراخه. ولكنّ الطيطوي لم يستسلم أمام قوّة وكيل البحر، فاستعدى أصحابه وملكهم، وجيرانه من سكان ساحل البحر، فذُعر وكيل البحر وأرجع فراخ الطيطوي.

إن حكاية وكيل البحر والطيطوي جاءت حجّة سرديّة في خطاب دمنة الموجّه إلى شتربة. وقد جسّدت مضمون فكرة دمنة، ونقلته من المستوى التجريديّ إلى المستوى التجريبيّ، فنفذت إلى ذهن شتربة، فأدرك أنّ الاستعداد للمواجهة أمر لازم. وبهذا تكون الحجّة السرديّة قد نهضت بوظيفتها، فقد اقتنع شتربة بوجوب الاستعداد الكامل لمقاتلة الأسد، قائلا: "لئن أنا عاينتُ منه ما وصفت، فما في أمره عندي شكّ"(١).

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ٩٩.

ويظهر أنّ للحجّة السرديّة مفعولا حجاجيّا قويّا في خطاب الشخصيّات، فقد أفلح دمنة في جميع مشاريعه الحجاجيّة، فأقنع كليلة بتأييد مسعاه في الإطاحة بشتربة، ونجح في حمل الأسد على الاقتناع بوجوب التخلّص من شتربة، ودفع شتربة إلى التسليم بضرورة الاستعداد لمواجهة الأسد. فكيف تشتغل الحجّة السرديّة في خطاب الراوي؟ ومن أين تستمدّ قوّتها الإقناعيّة؟

٢- الحجاج بالسرد في خطاب الراوي:

تجدر الإشارة إلى أنّ الراوي يأتي في المستوى الأوّل من السرد، هو راو من خارج الحكاية. وكان جيرار جونات قد عدل عن مصطلح مستوى أوّل إلى مصطلح "مستوى أوّليّ منعا لأيّ تفاضل بين المستويات"(١). وجاء الراوي في هذا المستوى السرديّ غفلا نكرة، واقتصر دوره على سرد الوقائع ورواية الأحداث وإدارتها.

والراوي من منظور السرديّات البنيويّة معنيّ أساسا بصناعة الحبكة وإيجاد الممكنات السرديّة ليمكّن السرديّة من التقدّم، ويحقّق الوظيفة الإمتاعيّة، وكذلك من منظور بلاغة الحجاج ينهض بأدوار أخرى عدّة قصد تحقيق الوظيفة الإقناعيّة. فالراوي في باب الأسد والثور يتوجّه إلى القارئ، ويحمل مشروعا حجاجيّا يهدف إلى التأثير والإقناع تمهيدا لتغيير السلوك. ويقوم ذلك المشروع على أطروحة مفادها التكامل بين السياسة والعلم. ويمكن تفصيل ذلك المشروع الحجاجيّ كما يأتي:

المحاجّ: الراوي　　المحجوج: القارئ

الأطروحة: التكامل بين السياسة والعلم　　وسيلة الإقناع: السرد

(١) مجموعة مؤلّفين، "معجم السرديّات"، إشراف محمّد القاضي، (ط ١، نشر مشترك، ٢٠١٠، ٢٠١٠)، ص: ٣٩٢.

كان الراوي واعيا تمام الوعي أنّه يعرض على القارئ أطروحة فكريّة موغلة في التجريد. وحدس أنّ القارئ قد لا تنهض به آلة الفهم لديه ليفهم المقاصد ويحيط بالمرامي والأبعاد، ففكّر في وسيلة الإقناع المناسبة، ثمّ قدّر أنّ الحجاج بالسرد قد يُبلّغه الغاية. فأورد حكاية دبشليم وبيدبا، وهما يتفاعلان قوليّا حول قضيّة أخرى، لا تقلّ بدورها تجريدا عن قضيّة الراوي الأساسيّة في باب الأسد والثور.

وتعدّ طبيعة العلاقة بين الشخصيّتيْن الرئيستيْن في باب الأسد والثور تمثيلا حكائيّا لفكرة التكامل بين السياسة والعلم. فدبشليم، ملك الهند، ويمنحه وضعه المؤسّسيّ ذلك سلطة سياسيّة ونفوذا مبسوطا، فيسمع له الجميع ويطيع. وأمّا بيدبا ففيلسوف، بل "رأس الفلاسفة"، وتتيح له مكانته تلك سلطة علميّة وأدبيّة على نظرائه ومريديه ومن هم دونه منزلة.

إنّ العلاقة بين السياسيّ والفيلسوف قامت على ثنائيّة الطلب والاستجابة (العلاقة العمودية) فدبشليم يطلب من بيدبا مزيدا من الإقناع بفكرة المتحابّيْن يقطع بينهما الخؤون الكذوب ويحملهما على العداوة. وبيدبا يستجيب للطلب، ويروي حكاية الأسد والثور ودمنة، من جهة كونها تمثيلا حكائيّا لتلك الفكرة. وختم كلامه باستصفاء العبرة من تلك الحكاية، قائلا: "فكان في صُنع دمنة، في صِغَرِهِ وضعفه، وهو من أرذل السباع وأحقرها، بالأسد والثور ما شغب به بينهما، وألَّب كل واحد منهما على صاحبه، حتى قطع وُدَّهما وإخاءهما، من الأعاجيب والعِبَر لذوي الألباب في الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهْس: والنظر فيما يزوِّقون من خديعتهم ومكرهم وسِعايتهم"(١).

إنّ طلب دبشليم لم يكن مرتبطا بتجربة عاشها بيدبا، بقدر ما هو الشغف بالعلم والمعرفة، والاطّلاع على طبائع المخلوقات في تصرّفها وتقلّبها. وهذا

(١) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ١٠٥.

يؤكّد إقبال دبشليم على الفلسفة والفلاسفة، وحاجته إلى الحكمة والمعرفة. وأمّا الاستجابة، فدليل على أنّ الفيلسوف سمّيع مطيع، فقد استجاب بيدبا لطلب دبشليم، وسرد له حكاية الأسد وشتربة ودمنة، سردا مفصّلا، فلم يترك في ذهنه مقدار حبّة خردل من الشكّ أو الريبة حول صدقيّة الفكرة القائلة بأنّ الكذوب الخؤون يقطع المودّة بين الرجليْن ويحملهما على العداوة.

وتستمدّ حكاية دبشليم وبيدبا في باب الأسد والثور، من حيث هي تمثيل سرديّ لفكرة التكامل بين السياسة والفلسفة، قوّتها الإقناعيّة من تحويل ما هو مجرّد عصيّ عن الإدراك لدى السواد الأعظم من القراء، إلى ما هو حسّيّ تجريبيّ قريب المنال من الأذهان. فيدرك القارئ المقاصد المخبوءة والغايات المضمرة، فيجعل التكامل مع غيره منهجا في الحياة وسلوكا رشيدا.

ورغم حرص السرديّات البنيويّة على التقيّد بمواضعات التخييل، وفصلها فصلا قطعيّا بين الراوي والقارئ التخييليّيْن من جهة، والكاتب والقارئ التاريخيّيْن من جهة أخرى، فإنّ بلاغة الحجاج، قرّبت الصلة بين الراوي والكاتب التاريخيّ، من جهة، والقارئ التخييليّ والقارئ الحقيقيّ من جهة أخرى. وتقتضي عمليّة التقريب تلك الخروج من الكون التخييليّ ومقاماته التواصليّة في باب الأسد والثور، إلى الواقع المرجعيّ ومقامه التواصليّ. ويشمل ذلك المقام التواصليّ المنشئ[1] والسامع الكونيّ. والمنشئ في باب الأسد والثور هو الكاتب أو المترجم الحقيقيّ، وهو عبد الله بن المقفّع. وأمّا السامع الكونيّ فهو القارئ الحقيقيّ ذو الوجود المرجعيّ التاريخيّ.

ويترتّب على عمليّة الخروج من الكون التخييليّ إلى الواقع المرجعيّ المرور من المعاني النصّيّة إلى المعاني البلاغيّة، فيؤدّي كلّ ذلك إلى الخروج

(١) محمّد العمري، "الحجاج مبحث بلاغيّ فما البلاغة؟" ضمن الحجاج: مفهومه ومجالاته، (ط ١، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠)، ١: ٢٥.

من الإقناع النصّيّ[١] إلى الإقناع التداوليّ. يقول صالح بن رمضان: "جاءت المقاربات التداوليّة لتخرج بالدراسة السرديّة من هذه النظرة الجزئيّة والسطحيّة والموغلة في التعامل مع الأدب بما هو تقنيات وأشكال إلى نظرة يتحوّل بمقتضاها السرد من منتوج لفظيّ جاهز إلى ملفوظ تداوليّ حيّ"[٢].

ولا يختلف مشروع ابن المقفّع الحجاجيّ عن مشروع الراوي المذكور أعلاه، وكان ابن المقفّع قد أشار إلى ذلك في بداية كتاب كليلة ودمنة، قائلا: "ولم يزل العقلاء من أهل كلّ زمان يلتمسون أن يُعقَل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيَل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العِلل، فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخَّصوا فيه من بليغ الكلام ومُتقَنه على أفواه الطير والبهائم والسباع؛ فاجتمع لهم من ذلك أمران: أمَّا هُم فوجَدوا مُتصرَّفًا في القول، وشِعابًا يأخذون فيها، وأمَّا هو فجمع لهوًا وحكمةً، فاجتباه الحُكماء لحكمته، والسخفاء لِلَهْوِه"[٣].

ومن وجوه الحيل تلك الحجّة السرديّة، فقد ساق ابن المقفّع حكاية دبشليم وبيدبا، لتكون تمثيلا حكائيّا لفكرة التكامل بين المسؤول والفيلسوف. فتيسّر عمليّة التمثيل على القارئ استيعاب الفكرة وتمهّد للاقتناع بها. ولا شكّ في أنّ القارئ سيبذل جهدا استدلاليّا للوصول إلى فكرة عبد الله بن المقفّع، سواء عن طريق التناسب أم عن طريق القياس. ففي مستوى التناسب، سيصل القارئ إلى أنّ دبشليم في الحكاية يناسب كلّ مسؤول في الواقع المرجعيّ، وأنّ بيدبا يناسب كلّ صاحب علم. وأمّا في مستوى القياس فسينطلق القارئ من الحكاية ويحلها

(١) محمّد مشبال، "بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب"، ضمن البلاغة والخطاب، (ط ١، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٤)، ص: ١٢٦.

(٢) صالح بن رمضان، "التواصل الأدبيّ من التداوليّة إلى الإدراكيّة"، (ط ١، المركز الثقافيّ العربيّ والنادي الأدبيّ بالرياض، ٢٠١٥)، ص–ص: ١٤٧–١٤٨.

(٣) ابن المقفّع، "كليلة ودمنة"، ص: ٤٥.

محلَ المقدّمة الكبرى، ثمّ يضع حالته الخاصّة محلَ المقدّمة الصغرى، ليصل إلى نتيجة مفادها ضرورة التكامل مع الأشباه والنظائر. وعندما يدرك القارئ أنّ الكاتب لم يحاجه حجاجا مباشرا، ولم يضغط على ذهنه، وأنّه وصل إلى تلك النتيجة بنفسه، سيعتقد أنّها نتيجته الخاصّة، فيزداد بها تسليما واقتناعا.

وبهذا يكون الراوي ومن خلفه المترجم عبد الله بن المقفّع، قد حاجّ القارئ بالسرد، فجاء السرد حجّة تمثيل مكّنت الراوي من تمثيل فكرته بحكاية سرديّة، وجعلها في متناول الإدراك بصرف النظر عن درجة كفاية القارئ الذهنيّة. ورغم أنَ المفعول الحجاجيّ قد بدا قويّا؛ فإنّه يظلّ مرتبطا بأحوال القارئ المختلفة لحظة تلقّيه الخطاب.

**

الخاتمـــــة

استخلاصا لما سبق؛ تبين أنّ السرد في باب الأسد والثور في كتاب كليلة ودمنة جاء خاضعا لقانون التبعيّة أو الخدمة في علاقته بالحجاج، فقد ورد حجّة سرديّة تقوم على تمثيل أفكار المحاجّ تمثيلا حكائيّا يقرّب تلك الأفكار المجرّدة ذات المضامين الفكريّة والأخلاقيّة من المتلقّي، فيتمثّلها على نحو حسّيّ تجريبيّ، يؤدّي إلى الاقتناع بها والتسليم بما ورد فيها من قضايا.

وقد أخذت الشخصيّات سواء في المستوى السرديّ الثالث أو المستوى السرديّ الثاني بالحجاج بالسرد في مختلف برامجها الحجاجيّة، وآثرت من وسائل الإقناع الحجّة السرديّة، فنجح دمنة في كسب تأييد أخيه كليلة، وأفلح في تأليب الأسد على شتربة، وتحفيز شتربة على الأسد. فكان للحجّة السرديّة الدور البارز في نجاعة خطاب دمنة الحجاجيّ وخضوع كليلة والأسد وشتربة لسلطة خطاب دمنة. والأمر ذاته بالنسبة إلى بيدبا، فقد أفلح في ترسيخ أطروحته في ذهن دبشليم، عن طريق إغراقه في دفق من الحجج السرديّة.

ونحت شخصيّات المستوى الأوّل المنحى ذاته، فقد اختار الراوي في مشروعه الحجاجيّ أن يستند إلى الحجّة السرديّة، لتنتقل أفكاره من المستوى التجريديّ إلى المستوى الحسّي، فيعقلها العقلاء، ويقتنعون بها ويسلّمون بمضمونها، ولعلّ ذلك يؤدّي إلى تغيير السلوك وتعديل الممارسة. وقد أدى الخروج من الكون التخييليّ إلى الكون المرجعيّ التاريخيّ إلى التشابه بين مشروع الراوي الحجاجيّ، ومشروع ابن المقفّع الحجاجيّ.

وتبدو الحجّة السرديّة ذات مفعول حجاجيّ قويّ مقارنة بسائر وسائل الإقناع الأخرى، وهي تعدّ عصب الحجاج في باب الأسد والثور خصوصا وكتاب كليلة ودمنة عموما. فتحوّل ذلك الباب، وذلك الكتاب من مجرّد حكايات مثليّة إلى أطروحة حجاجيّة دالّها الحيوان ومدلولها الإنسان. ولعلّ الحجاج

بالسرد تكون له مظاهر أخرى مختلفة في أنواع خطابيّة أخرى كالرواية والأقصوصة.

ومن أبرز التوصيات المستفادة من هذا البحث السعي إلى مقاربة العلاقة بين السرد والحجاج في مدوّنات سرديّة أخرى في التراث العربيّ، لا سيما في الأنواع السرديّة الأخرى مثل المقامة والنادرة.

**

المصدر والمراجع

١- المصدر:

- ابن المقفّع، عبد الله، "كليلة ودمنة"، تحقيق عبد الوهاب عظّام وطه حسين، (ط ١، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤).

٢- المراجع:

- أرسطو، "فنّ الخطابة"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (ط ٢، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، آفاق عربيّة، ١٩٨٦).
- ابن رشد، أبو الوليد، "نصّ تلخيص منطق أرسطو، المجلّد السادس والسابع، كتاب طوبيقي وسوفسطيقي أو كتاب الجدل والمغالطة"، دراسة وتحقيق جيرار جهامي، (ط ١، بيروت، دار الفكر اللبنانيّ، ١٩٩٢).
- البهلول، عبد الله، "مصادر القوّة الإقناعيّة في المثال المخترع، مثال البوم والغربان أنموذجا"، ضمن مؤمنون بلا حدود، (٢٠١٦)، استرجعت بتاريخ ٢٠٢٣/٠٩/٠٣ من موقع: www.mominoun.com.
- بلنجر، ليونيل، "عدّة الأدوات الحجاجيّة"، ترجمة قوتال فضيلة، ضمن الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، نصوص مترجمة، (ط ١، إربد، عالم الكتب الحديث،٢٠١٠).
- بن رمضان، صالح، "التواصل الأدبيّ من التداوليّة إلى الإدراكيّة"، (ط ١، المركز الثقافيّ العربيّ والنادي الأدبيّ بالرياض، ٢٠١٥).
- جنيت، جيرار، "خطاب الحكاية بحث في المنهج"، ترجمة محمد معتص وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، (ط ٢، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧).
- سلوان، توماس أوكونور، "موسوعة البلاغة"، ترجمة نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، (ط ١، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠١٦).

- صولة، عبد الله، "الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة"، (جامعة منوبة، ٢٠٠١).
- العزاوي، أبو بكر، "اللغة والحجاج"، (ط ١، العمدة في الطبع، ٢٠٠٦).
- العمري، محمد، "الحجاج مبحث بلاغيّ فما البلاغة؟" ضمن الحجاج: مفهومه ومجالاته، (ط ١، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠).
- القرطاجنّي، حازم، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، (الإصدار١، موسوعة الشعر العربيّ، ٢٠٠٩).
- مشبال، محمد،

* "البلاغة والسّرد: جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ"، (تطوان، منشورات كليّة الآداب، جامعة عبد المالك السّعدي، ٢٠١٠).

* "بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب"، ضمن البلاغة والخطاب، (ط ١، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٤).
- مجموعة مؤلّفين، "معجم السرديّات"، إشراف محمّد القاضي، (ط ١، نشر مشترك، ٢٠١٠، ٢٠١٠).

٣- المصدر والمراجع مرومنة:

١-Source:

- Ibn Al-Muqaffa, Abdullah, “Kalila and Dimna”, edited by Abdul-Wahhab Azam and Taha Hussein, (١st edition, Cairo, Hindawi Foundation for Education and Culture, ٢٠١٤).

٢-References:

-Aristotle, “The Art of Rhetoric,” translated by Abd al-Rahman Badawi, (٢nd ed., Baghdad, House of General Cultural Affairs, Arab Horizons, ١٩٨٦).

- Ibn Rushd, Abu al-Walid, "The Text of a Summary of Aristotle's Logic, Volumes Six and Seven, The Book of Topics and Sophistics, or the Book of Controversy and Fallacies," studied and edited by Gerard Jahami, (١st edition, Beirut, Dar al-Fikr al-Lubaniyyah, ١٩٩٢).
- Al-Bahloul, Abdullah, "Sources of persuasive power in the invented example, the example of owls and crows as a model," within Believers Without Borders, (٢٠١٦), retrieved on ٠٩/٠٣/٢٠٢٣ from the website: www.mominoun.com.
- Belanger, Lionel, "The Pilgrimage Toolkit", translated by Qutal Fadila, within Al-Hajjaj: Its Concept and Fields, a theoretical and applied study in the new rhetoric, translated texts, (١st edition, Irbid, Modern World of Books, ٢٠١٠).
- Bin Ramadan, Saleh, "Literary Communication from Pragmatics to Cognitivism," (١st edition, Arab Cultural Center and Literary Club in Riyadh, ٢٠١٥).
- Genette, Gerard, "The Discourse of the Story: A Study in the Method," translated by Muhammad Mu'tas, Abdul Jalil al-Azdi, and Omar Hela, (٢nd ed., Cairo, Supreme Council of Culture, ١٩٩٧).
- Silwan, Thomas O'Connor, "Encyclopedia of Rhetoric," translated by Nokhba, supervised and presented by Imad Abdel Latif, (١st edition, Cairo, National Center for Translation, ٢٠١٦).
- Soula, Abdullah, "Al-Hajjaj in the Qur'an through its most important stylistic characteristics," (Manouba University, ٢٠٠١).
- Al-Azzawi, Abu Bakr, "Language and Pilgrims", (١st edition, Al-Umda in print, ٢٠٠٦).
- Al-Omari, Muhammad, "Al-Hajjaj is a rhetorical topic, so what is rhetoric?" Among the Pilgrims: Its Concept and Fields, (١st edition, Irbid, Modern World of Books, ٢٠١٠).

- Al-Qurtajni, Hazem, "Minhaj al-Bulagha and Siraj al-Adabā'," (Issue ١, Encyclopedia of Arabic Poetry, ٢٠٠٩).
- Mishbal, Muhammad،

*Rhetoric and Narration: The Controversy of Photography and Pilgrimage in the News of Al-Jahiz," (Tetouan, Publications of the Faculty of Arts, Abdel Malek Saadi University, ٢٠١٠).

*The Rhetoric of Style Forms and the Horizons of Discourse Analysis," within Rhetoric and Discourse, (١st edition, Rabat, Dar Al-Aman, ٢٠١٤).

- A group of authors, "Dictionary of Narratives", supervised by Muhammad al-Qadi, (١st edition, co-published, ٢٠١٠, ٢٠١٠).

**

الملخّص:

يروم هذا المقال دراسة العلاقة بين الحجاج والسرد في خطاب سرديّ قديم. ويهدف إلى النظر في الدور الذي ينهض به السرد عند وروده في خطاب حجاجيّ، وكيف يتحوّل وسيلة من وسائل الإقناع، يستعين بها المتكلّم في حمل الأذهان على التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو الزيادة في درجة ذلك التسليم.

وسيعتمد لمقال على المنهج الوصفيّ، ويستعين ببعض مفاهيم السرديّات البنيويّة، ويوظّف التصوّرات البلاغيّة سواء في البلاغة القديمة أو البلاغة الجديدة. وهو يطمح إلى الوصول إلى نتائج تؤكّد طبيعة العلاقة بين الحجاج والسرد من جهة، وتؤكّد من جهة أخرى القيمة الحجاجيّة في السرد عندما يتحوّل حجّة سرديّة.

الكلمات المفتاحيّة: الحجاج، السرد، البرنامج الحجاجيّ، الحجّة السرديّة، التمثيل الخِطابيّ.

The Argumentation by narrative Through the gate of the Lion and the Bull in Kalila and Dimna

Abstract:

This article aims to study the relationship between the argumentation and the narration in an ancient narrative discourse, It aims to consider the role that narration plays when it appears in argumentation's discourse. And how does it turn into a means of persuasion, which the speaker uses to get the minds to accept the theses presented to them, or to increase the degree of that submission.

This article will rely on the descriptive approach, use some concepts of structural narratives, and exploit rhetorical concepts whether in ancient rhetoric or new rhetoric. And it aspires to reach conclusions that confirm the nature of the relationship between argumentation and narration on the one hand, and on the other hand, confirm the argumentative value in narration when it became a narrative argument..

Keywords: Argumentation, Narration, Argumentation Programme, Narrative Argument, Narrative Representation.

* * *